

بشكل النص السردي ومحتواه، والعملية على صعوبتها تتطلب إماما بقدرة هذا النوع من النصوص على التمتع في ظل سياقاته التي ينتمي إليها مؤثرا ومتأثرا، ولم تكن نشأة المقامة وحضورها الفني في هذا الصدد بمنأى عن انتماءاتها السوسيو- ثقافية التي تعد، والحال هذه، حواضن مهمة أسهمت بحضورها الواقعي ومساها التطوري في ظهور فنون وانحدار أخرى، وهو ما يعني أن ما طرأ على المنظومتين الاجتماعية والثقافية من متغيرات أدى إلى تغيير في مبنى النصوص الأدبية ومعناها، ومن مظاهر تلك التحولات ما يأتي:

- دخول أعراق متعددة في دين الله أفواجا مع الانفتاح على الثقافات الأخرى المجاورة وازدهار الحركة التجارية كان له دوره في سلوك الأدب العربي بعامة والكتابة القصصية بخاصة مسلكا تمثل فيه المقامة شكلا من أشكال التواصل/ التراسل الثقافي، وبنية سردية متأسسة على الاستهلال السردى والراوي المفارق لمروبه وبناء العالم الفني وما فيه من أزمنة سردية، تقوم وفقا لتوصيف(بول ريكور P. Ricoeur) على معنيين أساسيين؛ أولاهما زمن التفاعل بين الشخصيات والظروف، وثانيهما زمن جمهور القصة ومستمعها، فلا يكتمل النص إلا بوجود القارئ الذي يكمل أفق التجربة بأفق التوقع؛ لتصبح الحياة نفسها سلسلة من المتواليات السردية، ويصبح السرد واقعا معيشا<sup>22</sup>.

هو الواقع المتشكل نصيا في متن مقامات الهذاني والذي يؤثته مضمونا فضاء تيمي ينزع أحيانا إلى استحضار ما يبرر موقفه ويعزز حجته ويخدم دافع التكري لدى البطل؛ كتوظيف الحديث النبوي الشريف بما هو مرجعية من مرجعيات الثقافة الإسلامية: "أثارني ورفقةً وليمة، فأجبت إليها للحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دُعيتُ إلى كِراع لأجبتُ، ولو أهدى إليّ ذراع لقبلت"<sup>23</sup>، وفي موضع آخر نلني ردة فعل من

راوي المقامة عيسى بن هشام، وهو يستهجن تشدد بعض الأئمة في العبادات وما قد يصحبه من نفور لقلّة إيمان أو ضعف عقيدة<sup>24</sup>.

- أدى التحول الاجتماعي أخلاقا وصفات نتيجة حضور العنصر الأجنبي بعباداته وتقاليده وأعرافه وطرائق تعامله إلى ظهور طباع غريبة على المجتمع العربي؛ مثل البخل والكدية وهما الصفتان اللتان لم يعرفهما العربي في واقع مجتمعه المعروف بالجود والكرم وعزة النفس وكرهية المذلة والهوان.

لذلك فإن البحث في نموذج ما من السرديات القديمة، مرتبط باستنتاج طبيعة التفاعل بين النص والسياق الاجتماعي- الثقافي الذي يسهم بشكل أو بآخر في تحديد مضمون النصوص ووظائفها، وهذا ما يبرر اختلاف أنماط النصوص باختلاف أنواع الثقافات المنتمية إليها، ومستويات تلقيها سواء أكانت خارجية متصلة بالمؤلف والقارئ أم كانت داخلية مقرونة بالراوي والمروي له، وتلك عناصر يسنح تواجدها بفهم ما يشتمل عليه الخطاب السردى من مراحل أساسية تبدو للوهلة الأولى بنية سردية تقليدية: الحالة الأولية ( L'état initial)، التحولات الطارئة، والحالة النهائية (L'état final)، ويشتمل أيضا على تدرج معين تفرضه مجريات الأحداث وتعاقبها<sup>25</sup>.

ومن الأمثلة على هذا التوجه السردى البنائي ما تضمنته (المقامة العلمية): "حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت في بعض مطارح الغربة محتارا، فإذا أنا برجل يقول لآخر: بم أدركت العلم؟ وهو يجيبه قال: طلبته فوجدته بعيد المرام لا يصطاد بالسهام ولا يُقسم بالأزلام ولا يرى في المنام ولا يُضبط باللجام ولا يُورث عن الأعمام، ولا يُستعار من الكرام، فتوسلت إليه بافتراض المدر واستناد الحجر وردّ الضجر وركوب الخطر وإدمان السهر واصطحاب السفر وكثرة النظر وإعمال الفكر، فوجدته شيئا لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغرس إلا في النفس وصيدا لا يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائرا لا يخدمه إلا قنص اللفظ ولا يعلقه إلا شرك الحفظ، فحملته على الروح وحبسته

على العين وأنفقت من العيش وخرزت في القلب وحررت بالدرس، واسترحت من النظر إلى التحقيق ومن التحقيق إلى التعليق واستعنت في ذلك بالتوفيق، فسمعت من الكلام ما فتق السمع ووصل إلى القلب وتغلغل في الصدر فقلت: يا فتى ومن أين مطلع هذه الشمس؟ فجعل يقول:

إسكندرية داري لو قرّ فيها قراري  
لكنّ بالشام ليلي وبالعراق نهاري<sup>26</sup>

حيث يبني الاستهلال على عبارة مشتركة بين المقامات جميعها (حدثنا) مع الفاعل نحويا والراوي سرديا عيسى بن هشام، على أنّ هذا التوظيف ليس بمنأى، من منظور تأويلي، عن طرائق نقل الأحاديث النبوية اعتمادا على الأسانيد والرواية وما يصح فيها وما يُرد، لتحيلنا تراتبية السرد وجريان أحداثه على (رجل يقول) مشبعا بالحكم والتجارب والمعارف وبُعد النظر فيما يتعلق بالعلم ومسارته وكيفية تلقيه وطلبه، مختتما كلامه بأبيات شعرية تعبيراً منه عن فصاحته وسعة اطلاعه وكثرة تنقلاته بحثاً عن مصادر العلم والمعرفة غير أنّه لم يُفصح، مثلما تعودّ عليه القارئ في مثل هذا النوع من المقامات، عن كنيته ولقبه (أبو الفتح الإسكندري)، بل لمَح إلى ذاك بدلالة مكانية في صدر البيت الأول (إسكندرية داري)، ويبن محطتي الاستهلال والاختتام يتموقع السرد لتتبري السرديات باحثة عن طبيعة هذه المادة وما تتفرد به عمّا سواها من أنماط الكتابات الأخرى.

وأما عن حركة البطل، انطلاقاً من ملفوظاته السردية، فإنها مرتبطة بمكان غير محدد في (مطارح الغربية) على حدّ توصيف عيسى بن هشام في فاتحة المقامة، ومع ذلك لم تنقطع رابطة الانتماء إلى مكان النشأة الأولى (الإسكندرية) المصرح به في متن البيتين الشعريين، والإشارة أيضاً إلى التنقل

الدائم والانتقال في حواضر العراق والشام، لتزداد معها التجارب وتتنوع المغامرات.

والمتمعن في هذه الشخصية بأقوالها وتصرفاتها وطبائعها يجدها تتحدد وظيفيا من خلال توقعها داخل العمل السردى من جهة وعلاقتها التي تنسجها مع الشخصيات المساعدة من جهة أخرى، أي إنها تتعالق نصيا مع وحدات من مستوى أعلى (العوامل) أو وحدات من مستوى أدنى (الصفات المميزة)<sup>27</sup>. ويتأسس هذا التوجه الفني في بناء الشخصية على ما تتضمنه المؤشرات النصية من معطيات متصلة بأهداف المقامة ودواعي ظهورها، وقدرتها على تجاوز حدود الكتابة وسعيها لإثبات وجودها ضمن المنظومة الثقافية التي كانت سائدة آنذاك.

**ختاما** تشكل العناصر النصية النسيج الدلالي والتركيبي للنصوص الأدبية، ومنها على الخصوص فن المقامة الذي نشأ في أحضان ثقافية واجتماعية كان لها أثرها في استمرار صنوف أدبية معينة واضمحلال أخرى، فما يضمن حضور النص حتى يتسنى له تحقيق دوامه واستمراريته هو وجود حواضن ينشأ فيها ويدخل في تفاعل مع أنساقها.

إنّ البحث عن منطلقات المكون السردى في مقامات الهمداني معناه استنطاق تلك الحواضن واستقصاء لمستويات التلقي وعمق التفاعل النصي للمقامة، درءا لغربة عناصر تشكيلها الفني، فكأننا إزاء غواية السرد وقد عاد بنا القهقري قرونا إلى الوراء.

ولا شك في أن تحليل المكون السردى لمقامات الهمداني هو محاولة للتأكيد على أهمية المعطى السوسيو- ثقافي في إضفاء خصوصية أجناسية على المقامة العربية، وليست فرضا لقراءة معينة تُحمّل النص الأدبي ما لا يطبق، لهذا اتكأت هذه المقاربة على ما يمثله نص المقامة من تراكم كمي ونوعي، يحتاج إلى دقة التحليل وعمق المعالجة بالوقوف على المضمير/

المخبوء في تلك النصوص القصصية التي لا تكتفي في بعدها الوظيفي بتقنيات الكتابة السردية؛ بل تحيل على مجموعة من الصفات المتعلقة بالسرد، والأحوال الخاصة به، وما لها من مميزات بنائية وأسلوبية استعانة بأدوات إجرائية يتحدد بموجبها انتماء تلك النصوص وخصائصها الأجناسية ضمن ما تلميه أصول النظرية الأدبية ونطاقات اشتغالها.

الهوامش:

- <sup>1</sup> ينظر: حميد لحميداني: مرجع سابق، ص45.
- <sup>2</sup> - ينظر: عبد الرحيم الكردي: البنية السردية للقصة القصيرة، ط03، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2005، ص13.
- <sup>3</sup> - ينظر: عبد الله إبراهيم: السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي) ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1992، ص10.
- <sup>4</sup> - ينظر: ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011، ص 102.
- <sup>5</sup> - ينظر: عبد الفتاح كيليطو: المقامات (السرد والأنساق الثقافية)، ط02، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص 39.
- <sup>6</sup> - بديع الزمان الهمذاني: مقاماته، ط01، مطبعة السعادة، مصر، د/ ت، ص102.
- <sup>7</sup> - ينظر: عبد الفتاح كيليطو: المرجع السابق نفسه، ص 42.
- <sup>8</sup> - بديع الزمان الهمذاني هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان ولد سنة 385هـ، ونشأ بهمدان وانتقل إلى جرجان وأقام بها مدة ثم انتقل إلى نيسابور سنة 382هـ حيث أُملى فيها مقاماته مات سنة 398هـ. ينظر: عمر عروة: النثر الفني القديم، د/ ط، دار القصة للنشر، الجزائر، د/ ت، ص 110.
- <sup>9</sup> - بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص73.
- <sup>10</sup> - بديع الزمان الهمذاني: المصدر نفسه، ص18.
- <sup>11</sup> - ينظر: ركان الصفدي: مرجع سابق، ص147.
- <sup>12</sup> - بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص48/47.
- <sup>13</sup> - بديع الزمان الهمذاني: المصدر نفسه، ص09.

- <sup>14</sup>- بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص 36.
- <sup>15</sup>- عبد الفتاح كيليطو: مرجع سابق، ص 13.
- <sup>16</sup>- بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص 32.
- <sup>17</sup>- ينظر: عبد الفتاح كيليطو: مرجع سابق، ص 13 / 14.
- <sup>18</sup>- ينظر: محمد ونان جاسم: المفارقة في القصص (دراسة في التأويل السردي)، ط 01، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010، ص 17.
- <sup>19</sup>- عبد الفتاح كيليطو: مرجع سابق، ص 19.
- <sup>20</sup>- عبد الفتاح كيليطو: المرجع نفسه، ص 08.
- <sup>21</sup>- ينظر: عبد الفتاح كيليطو: المرجع نفسه، ص 23.
- <sup>22</sup>- ينظر: بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، تر: سعيد الغانمي، ط 01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص 32.
- <sup>23</sup>- بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص 51.
- <sup>24</sup>- ومن أمثله (المقامة الجاحظية)، يراجع في هذا الصدد النسخة المعتمدة في الدراسة: بديع الزمان الهمذاني: مقاماته، ط 01، مطبعة السعادة، مصر، د/ت.
- <sup>25</sup>- ينظر: محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالاته التطبيقية، ط 01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص 110.
- <sup>26</sup>- بديع الزمان الهمذاني: مصدر سابق، ص 155 / 156.
- <sup>27</sup>- فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، 1990، ص 10.

مجلة الآداب واللغات